

ولكننا إذ ألقينا نظرة متأمله إلى هذه الآراء فإننا نستطيع أن نقول إن هناك مأخذاً عاماً عليها قبل أن ندخل في تفاصيلها ، وهو أنها يغلب عليها تعميم الأحكام حتى دون محاولة إبراز الاستثناء أو الإشارة إلى أن هذا الحكم يصدق على نسبة من المقدمات ، أو على غالبيتها أو غير ذلك ، مع أنه من الواضح حتى من خلال بحوث أصحاب هذه الآراء أنفسهم أن الشعر الجاهلي أو القديم عامة لم يلتزم طريقة واحدة ، ولاغرضاً واحداً ، ولا طابعاً واحداً ، بل هناك أغراض عديدة بمقدار تعدد شئون حياتهم ، ولكن الأحكام المغالية في هذه الآراء إنما تنظر إلى غرض واحد كالمده ، أو إلى عدد محدود جداً من الأغراض لا يمثل الأغلبية في الأغراض ، وإنما يمثل أقليتها ، أما بقية الأغراض فلا تنطبق عليها هذه الأحكام ، ومن الغريب أننا نلاحظ أن معظم نقد المحدثين وأحكامهم على مقدمة القصيدة مبنى على كلام ابن قتيبة السابق عن تعليل لجوء الشاعر إلى عدة عناصر في مقدمة القصيدة قبل الدخول في موضوعها ، ومع أن ابن قتيبة يوضح أنه إنما يتحدث عن قصيدة المدح ، وهو غرض واحد من أغراض عديدة ، إلا أن معظم النقد والأحكام على القصيدة الجاهلية تكاد تنصب على هذا الغرض ، معرضة عن الأغراض الأخرى التي لا يسلك الشاعر فيها هذه المراحل أو العناصر التي يسلكها في قصيدة المدح ، وكذلك عند الاستشهاد بالشعر الجاهلي في الحديث عن المقدمات نلاحظ أنهم يراعون عدداً محدوداً من القصائد كالمعلقات أو بعض القصائد المشهورة ، مع أن هذه القصائد لا تمثل بداية إلا الأقلية في الشعر الجاهلي ، كما أن أصحابها أيضاً لا يمثلون من حيث العدد إلا الأقلية ، وأما قيمتهم الأدبية المتفوقة فليس لها اعتبار كبير في هذا المبحث ، لأنه المبحث حول المقدمات لا يدور أساساً حول جودتها أو عدم جودتها ، وإنما يدور حول تعليل وتفسير منهجها ودلالاتها ليس من حيث الألفاظ أو الأسلوب ، وإنما بصفة خاصة من حيث الدلالة الرمزية ، أي من حيث محاولة تبين ماذا يقصد الشاعر؟ أو علام تدل هذه المعاني أو الصور التي ساقها الشاعر في مقدمته؟ وهذه الدلالة الرمزية غير دلالة التعبير الأدبي ، بمعنى أن الشاعر حينما يجعل مقدمة قصيدته حديثاً عن الأطلال أو الغزل ، فليس مدار الحديث في هذه الآراء حول جودة أو رداءة التعبير أو المعاني ، وإنما حول دلالة صفة الأطلال والغزل ، وهذه الدلالة توجد في كل مقدمة بصرف النظر عن مستواها الأدبي .